فى وداع امرأة البحر.. ذات العينين السماويتين

لماذا

لا يصاب ساكنو البحر بالسأم والضجر؟. هل لأن المدى الذى تذهب إليه أنظارهم يتجاوز عيون الآخرين والبنايات العالية؟ هل لأن ساكنى مدن البحر ينظرون طويلاً إلى البحر، ويحدقون فى السماء والنجوم، وتحمل نظراتهم قدراً أكبر من الود لأسفار القمر ولارتحالات الشمس، وما تسبغانه فى الفضاء من فرح الألوان والأضواء؟.

عندما حان موعد مغادرتى «أغادير» مدينة البحر المحيط سمعت بداخلى صوتاً يبدى احتجاجا خشيت أن تسمعه المرأة الوردة «مراكش» التى أحببتها وعلى أن أعود لألقاها فى الموعد الذى خصتنى به. لم أطع هوى القلب، وغادرت «أغادير» التى لم تغادرنى، فوجدتنى أتعثر فى خجلى وأنا ألوح بيدى مودعاً امرأة البحر ذات العينين السماويتين التى لم تنس قبل رحيلى عنها أن تهدينى برتقالات من بساتينها وزجاجة من زيت شجر الأركان.

إلى «مراكش» وردة الجنوب وواحته، الناهضة فى المنتصف تماماً بين الصحراء والجبل، أعود. تجذبنى «مراكش» إليها بتعدد ألوانها وأصواتها وإيقاعاتها وببهجة احتفالها اليومى الذى يضم مواكب من البشر البشراء والمشايخ والمجانين ومروضى الثعابين والمتسولين

والمتصعلكين والنشالين والمصورين الفوتوغرافيين. «مراكش»، قال فيها الشاعر الفرنسى «جيمس ساكريه»:

أتمنى لو كان فى استطاعتى أن أكتب أشعاراً
تحتشد بالصور
نرى فيها لون مراكش من دون أن نخطئ.
من جلستنا فى ذلك المقهى سوف نلمح بدقة
صورة وجهك الهارب
هذا الوجه المضطرب الذى سوف يبتسم
بعد أن نكون مَشَيْنَا سويا
وتكلمنا كثيراً وصمتنا كثيراً أيضاً.
يالحظة المساء فى مراكش
وآه كم يبدو العالم أيضا خفيفاً
الشىء الذى لا أستطيع معه بطبيعة الحال
أن أجزم بأن ثمة كلمات
تستطيع أن تصور أو تعبر حتى عنه.
أجل أتمنى لو كان فى مقدورى أن أكتب أشعاراً
تحتشد بالصور
ونستطيع أن نرى فيها لون هذه المراكش
ونشم عطرها.

تقيم مراكش لأعضاء وفود اتحادات الكتاب السياحيين العرب

والمتوسطي والدولى حفل عشاء فى قاعة بفندق «المامونية» الشهير، يحضره ولى عهد المغرب وعدد من المسئولين الحكوميين والقيادات المحلية، ومضيفنا «مصطفى العلوى» رئيس تحرير جريدة «الأسبوع» الذى يتمتع بحب وتقدير الناس البسطاء الشرفاء فى المغرب. جاءت جلستى إلى مائدة ضمت ثلاثة من مسئولى بلدية مراكش، أبديت لهم رغبتى فى لقاء الشاعرة والأستاذة الجامعية الدكتورة «مليكة العاصمى»، التى عملت لفترة نائبة لرئيس بلدية مراكش، ولها بحث علمى موسوعى فى ثمانية أجزاء بعنوان «موسوعة الثقافة الشعبية والميثولوجيا المغربية، ولها كذلك اهتمام بنساء مراكش وبجامع الفنا.

فى فندق «المامونية» نزل روزفلت ونشرشل وديجول ونيكسون وشاه إيران وهيلا سلاسى وريجان وبوش، إضافة إلى شارلى شابلن وأورسون ويلز، وغيرهم من مشاهير العالم الذين أقاموا فيه منذ تأسيسه فى عام ١٩٢٠، ومازال أرشيف «المامونية» يحتفظ برسائل بعض نزلائه الذين ارتبطوا بعلاقة خاصة وحميمة به، يتمنون فيها الموت داخل الفندق، على رغم الاعتقاد السائد بأن السباحة فى مياه حمام السباحة الدافئة فى «المامونية» تطيل عمر الإنسان بحوالى عشر سنوات.

ربما يكون الجلوس إلى مائدة طعام عامرة بفاخرِ الطعامِ فى قاعة بفندق «المامونية» أمرا يسعد الكثيرين خاصة أن جيشاً جراراً لا هم له غير تلبية كل إشارة أو إيماءة أو حركة من قبل الجالسين إلى المائدة، لكن شيئاً فى الطقوس المصاحبة لحفل العشاء تسبب فى شعورى بالضجر،

الأمر الذى جعلنى أتسـلل خلسة من المائدة ومن القاعة، تقود خطواتى رغبـة فى التعرف إلى ذلك العالم المخملـى، الذى هو أقرب إلى الخيال البـاذخ وإلى أجواء قصص ألف ليلة وليلة منه إلى الواقع اليومى المعيش فى ساحة جامع الفنا التى لا تبعد كثيراً.

مـن بهو إلى آخر، ومن قاعة إلى أخـرى، قادتنى خطواتى إلى صالة كثيراً ما كنت أشـاهدها فى الأفلام السـينمائية الأمريكية التى تصور رجالاً فى كامل أناقتهم وإلى جوارهم نساء جميلات فى كامل زينتهن، جالسين إلى موائد خضراء عليها أوراق لعب وأوراق مال، وعلى الوجوه تعبيرات قلق وترقب لا تخفيها سـحب الدخان الصاعدة من أفخم أنواع السـجائر الأمريكية والسـيجار الكوبى. فى اللحظة التى أدركت فيها أننـى فى داخل صالـة لعب الـورق الفندق البـاذخ اضطربت خطواتى وتوقفت للحظات قبل أن أسـتجمع شـجاعتى وأتحدى خوفى واسـتمر فى السـير بين الموائد الخضراء موهماً نفسـى قبـل أن أوهم من رمقنى وتفحصنـى ملياً بناظريه أن هـذه الصالة هى بالفعـل مقصدى أنا أحد أعضاء الوفد المصرى الذين يواصلون تناول طعام العشـاء الفاخر بالقاعة القريبة من هذا المكان.

اعتصر قلبى حزنا وألما وأنا أرى بشراً من لحم ودم يرفلون فى النعيم ويجـدون المتعة فى اللعـب بالمال حتى وإن لحقت بهم خسـارة مالية فادحة، وهناك فى ساحة الفنا التى لا تبعد كثيراً، ومنذ ساعات قليلة، رأيت بشـراً من لحم ودم أيضاً يلعبون بالنـار، ويبتلعونها ، ويلعبون

مع الأفاعى السامة، من أجل كسب دراهم قليلة تكفى بالكاد لسد رمق الزوجات والأطفال. الرغبات العارمة والمخاوف المختبئة خلف حوائط البيوت الصغيرة.

تذكرت ما قاله لى «عمرو سعودى» زميل العمل السابق بمكتب جريدة الشرق الأوسط بالقاهرة عن شقيقه الذى لم يجد عملاً بشهادة البكالوريوس الحاصل عليها من الجامعة سوى وظيفة رجل أمن فى صالة قمار بأحد الفنادق الكبرى بالقاهرة ، يؤمه كبار القوم من الأعيان والفتوات والأثرياء. كان عمل رجل الأمن الجديد بصالة لعب الورق لا يخرج عن الوقوف جانباً طوال ساعات الليل يراقب كل حركة أو إشارة أو إيماءة من الرجال الجالسين فى كامل أناقتهم ومن النساء الجالسات إلى جوارهم وهن فى كامل زينتهن. شاهد رجل الأمن الجديد الشاب كيف كان الرجال الأثرياء المتوحشون يخسرون آلاف الدولارات الأمريكية فى لعب ليلة واحدة، وكيف كانوا يغادرون فى الساعات الأولى من الصباح ووجوههم المتخمة تنشى بسعادة مفرطة لم تنل منها خسارة آلاف الدولارات الأمريكية.

كانت التعليمات الصادرة من مدير الصالة بالفندق الكبير بالقاهرة لموظف الأمن الجديد بألا يقترب من الجالسين إلى الموائد، وبألا يتحدث إلى أى منهم وإلا فإن الطرد من العمل سيكون فى انتظاره.

لكن موظف الأمن الشاب الذى هاله ما رأى وسمع، ضرب بالتعليمات عرض الحائط، واقترب من أحد أولئك الأثرياء الجالسين إلى مائدة القمار، وهمس فى أذنه: رأيتك تغادر صالة القمار على مدى ليال متتالية سعيداً مبتهجاً دون أى أثر لحزن أو غضب على ما تخسره كل ليلة من أموال طائلة. أجاب الرجل الجالس فى كامل أناقته وإحدى ذراعيه تلتف حول جسد امرأة جميلة فى كامل زينتها إلى جانبه، وابتسامة واسعة تملأ وجهه المتخم: لو علمت قدر ما امتلكه واستحوذ عليه من ثروة ما كنت قد وجهت لى سؤالك هذا. وفى الوقت ذاته الذى انفجر فيه الرجل الثرى فى ضحك صاخب، تقدم مدير صالة القمار من موظف الأمن الجديد الشاب الذى خالف التعليمات، وأشار له بيده فى حسم صوب باب الخروج.

إذا كان هناك من يؤكد أن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة، فهل يمكن التأكيد على أن الثروة التى لاحد لها مفسدة لاحد لها؟.

هل الثراء الفاحش يصنع رجاله الأثرياء الجشعين؟. هل يستطيع الجشع أن يصنع رجالاً أثرياء متوحشين؟.

أدير ظهرى لصالة القمار بفندق المامونية، تقودنى خطواتى إلى فضاء مراكش، والسماء السوداء الجريحة، ومئذنة جامع الكتبية المنيرة فى خفوت، والقمر السادر فى حزنه.

هـل على المسـافر الرحالة أن يكـون بلا قلب؟. فـى كتابه «أصوات مراكش» يقول «إلياس كانيتى» الكاتـب البلغارى المولد، الحاصل على جائزة نوبل: «حينما يسافر المرء، فإنه يقبل كل شىء، ويدع الحنق وراءه فى وطنه، ينظر، ويصغى، ذلك أن الرحالة الجيد رجل بلا قلب».

قلبى على مراكش المرأة الوردة بلون الشمس والقمر، المكتفية بذاتها، فـلا تعطـى حبها للذين يقبلون يـداً غير يدها النورانيـة ، قلبى على مراكش المرأة الوردة، المعشوقة أبداً، التى تتلقى الحب ولا تعطيه.